ضرورة الدراسة العلمية للتعبير الفني للأطفال

مقال وجهة نظر

* مصطفى محمد عبد العزيز حسن
* أستاذ علم النفس المتفرغ، قسم علوم التربية الفنية، كلية التربية الفنية، جامعة حلوان.
البريد الإليكتروني: drmostafama@hotmail.com

تاريخ المقال:

- تاريخ تسليم المقال للمجلة: 14 نوفمبر 2021
- تاريخ موافقة هيئة التحرير على النشر: 14 نوفمبر 2021

التعبير الفني للأطفال لون من الفنون، وقديما ميز "ارسطو" بين العلوم والفنون على أساس أن الفن لون من ألوان النشاط العقلي الذي يحاول فيه الإنسان تحقيق غايات عملية، أو الوصول إلي منفعة يرجو أن تتحقق له، علي حين أن العلم لون أخر لذات المعرفة وبغض النظر عما إذا كان الميسور الاستفادة من هذه المعرفة من بعد ذلك أم لا.

والمتأمل لمناهجنا الدراسية في مراحل التعليم العام يتبين له أن المنهج في كل صف دراسي يتضمن عددا من المواد الدراسية التي هي أوجه نشاط علمي بحت وعدد آخر من الأنشطة يمكن أن يقال عنها أنها بمثابة الفنون، أما النوع الأول من موضوعات المنهج فيشمل المواد الدراسية من قبيل الفيزياء وعلوم الحياة والجغرافيا والتاريخ وما إليها، وأما النوع الثاني فيتضمن الرسم والأشغال اليدوية والاقتصاد المنزلي، وتجويد الخط، وما إليها من سائر الفنون.

والحكمة العامة أو المبدأ العام في فلسفة التربية الذي يكمن وراء تضمين المنهج الدراسي كلا من هذين النوعين من النشاط العقلي العلمي والفني في الإيمان بضرورتهما للطالب الناشئ، والحرص على أن يتزود منهما بما سبق للبشرية أن حصلته من المعارف والفنون بحيث يستطيع أن يبدأ من حيث أنتهي الأسبقون، بدلا من أن يبدا من حيث بدأوا .

وبدلا من أن يتعرض كما تعرضوا لهذا الشوط الطويل من المحاولات و ارتكاب الأخطاء الذي لبثوا فيه أحقابا طويلة من السنين، ولعل هذا الأمر لا ينطوي منطقيا علي مسلمة يؤمن بها بعض فلاسفة التربية وواضعوا مناهج مؤداها أن من الميسور للمربي أن ينقل التراث الإنساني أو مجموع ما حصلته البشرية من خبرات في مجال العلوم والفنون إلي الطالب الناشئ عن طريق استخدام اللغة كأداة للتواصل الفكري أو التفاهم، أي أن احتواء المنهج علي عدد من المواد الدراسية بعضها من قبيل العلوم أو المعارف وبعضها من قبيل الفنون، يعني أن كل واحد من هذه العلوم والفنون نوع من الخبرة التي يمكن أن ينقلها المعلم إلي المتعلم.

ولكن هذه المسلمة يجب أن تكون محل نظر ودراسة، ذلك أن المعارف تختلف بطبيعتها عن الفنون في عدة نواح: أولها أن الناس يخرجون إلي الحياة وليس لديهم شئ من الحقائق أو الخبرات فهم متساون من هذه الناحية علي حين أنهم يخرجون إلى الحياة، وقد تفاوتوا فيما بينهم من حيث استعدادهم لاكتساب فروع الفن المختلفة، ثم أن الفنون تختلف عن المعارف كذلك من جهة ثانية، وهي قدرة المعلم على توصيل كل واحد منها إلى الناشئ المتعلم، ذلك أن نقل المعلم للمعارف والمعلومات إلى الطالب الناشئ أمر يسير إذا ما قورن بقدرة المعلم علي نقل الفنون إلي الناشئ، ذلك لأن نقل الفنون يتطلب من المعلم أن يكون قد عكف علي فنه بالدراسة والتحليل حتي يستطيع أن يخلع بعض التسميات أو الاصطلاحات علي العناصر المختلفة التي تتألف منها الفنون ليسهل من بعد ذلك نقلها والتفاهم بشأنها الدارس المتعلم، السنا نجد في كثير من الأحيان أن صاحب الفن يؤد عمله على درجة عالية من الكفاءة والتفوق ثم يطلب اليه تعليم واحد من الناشئين مبادئ فنه أو مهاراته مثلا فنجده يعجز عن ذلك ويكتفي بمطالبة المتعلم بمشاهدته والتطلع اليه عند قيامه هو بأداء عمله، كما نجد أن الجهد الذي يبذله المعلم بوصفه معلما لا بوصفه فنانا منتجا يكاد يقتصر علي مطالبة المتعلم بمحاولة القيام بالعمل ثم تقويم عمل الدارس وإظهار الرضي عنه أو السخط عليه. أي أن المعلم لا يزود الدارس بإرشادات لفظية تسهل عليه عملية التعليم ولا يكاد يستطيع نقل خبراته إلي المتعلم عن طريق الاستعانة بأداة التواصل الفكري الأولي وهي اللغة، إلا أن الفنون تتفاوت فيما بينها في هذه الناحية بمعني أن منهما ما يمكن نقله من المعلم إلي الدارس عن طريق استخدام اللغة والتوصل إلى الإرشادات اللغوية التي توفر علي المتعلم ارتكاب كثير من المحاولات الخاطئة علي حين أن منها ما قد لا يمكن نقله باستخدام هذه الطريقة لأن الأسبقين في هذه الفنون لم يبذلوا مجهودات واضحة التحليل عناصر الفن، ولتسمية كل واحد من هذه العناصر بحيث يتسني في أخر الأمر نقل هذه الفنون أو المهارات إلى الدارس عن طريق اللغة والإرشادات اللفظية، ففي تجويد الخط مثلا نجد أن الأسبقية ممن ملكوا ناصية هذا الفن ووصلوا فيه إلي مستوي عال من الاقتدار قد قاموا بتحليل عناصر هذا الفن وتيسير أمر نقله إلى الدارس و التوصل إلي عدد من الإرشادات والتوجيهات اللفظية كان يجد لديهم قاعدة مثلا تقوم أن الآلف تساوي نقطتين أو ثلاث نقاط مثلا وأن حرف العين في الخط الرقعة لابد أن تكون مطموسة بخلاف حرف الفاء وهكذا. أما في الفنون التشكيلية وعند تدريس الرسم أو الأعمال المجسمة مثلا فاننا غالبا لا نجد المعلم يزود طلابه بالإرشادات اللغوية والتوجيهات التي من شأنها أن تيسر أمر التعليم"التعبير الفني عند الأطفال" علي التلميذ، وانما يكاد يقتصر علي التشجيع وعلي مطالبة

الطلاب بأن يعبروا بالوسائل المتاحة عن خبرة تعرض كل منهم لها.

وبذلك نجد أن نقل الخبرة من المعلم إلى الدارس في مجال التربية الفنية تختلف عن نقل الخبرات اللغوية مثلا، فمدرس اللغة العربية مثلا يبين للطالب أن حرف العلة يحذف من أخر الفعل المضارع إذا سبقه ناصب جازم، ومدرس الإنجليزية يبين لتلميذه أن الفعل المضارع يلحقه حرف (S) إذا كان الفاعل ضمير و غائب مفرد علي حين أن مدرس التربية الفنية قلما يبصر تلميذه عن عدم رضاه عن نوع التفاعل بين الألوان التي استخدمت في إنتاجه الفني، بل وسبب رضاه أيضا مكتفيا بعبارات التشجيع، كما أن الفنانيين التشكيليين غالبا ما يستخدمون في وصف الإنتاج الفني عدد من المفاهيم والألفاظ التي قد لا يسهل عليهم الاتفاق حول معناها كان يقال أن حظ اللوحة أو العمل المجسم من القوة أو الحرارة كبير، أو أن فيهما شيئا من الانسجام الموسيقي، من غير أن تكون المفاهيم القوة أو الحرارة أو الانسجام الموسيقي أو سلامة التكوين معني محدد واضح أو معني يتفق عليه كل المشتغلين بهذا الفرع من فروع الفنون.

لعله قد وضح إذن ما قصدت إليه حين قلت أن المنهج الدراسي، يتضمن نوعين من مجالات الدراسة يحرص المربي علي أن يتزود الطالب الناشئ بقدر منهما، وعلي أن ينمو الدارس في كل مجال منهما. وما قلناه ايضا من أن عملية نقل الخبرات من المعلم إلى الدارس تتفاوت فيما بين المعارف والفنون.

كذلك نقول أن على أصحاب الفنون أن يحاولوا جاهدين دارسة فنونهم بغية التوصل إلي وصف العناصر التي تتألف منها فنونهم وإلي تحديد مفاهيمهم، واصطلاحاتهم، وإلى الانتهاء من عدد من الإرشادات اللفظية والتوجيهات اللغوية التي تيسر لهم عملية نقل الخبرات، والتراث من السلف إلى الخلف حتي لا يقتصر الأمر في دروس التربية الفنية على إتاحة فرص المشاهدة والمحاولة للطالب، من أجل تقويمه من بعد ذلك والاكتفاء بإظهار الرضي عنه وتشجيعه وحفزه إن كان موفقا أو إبداء السخط والاستنكار إن لم يوفق.

وقد يعترض على هذا الموقف الذي اتخذناه بأن الفن نوع من تعبير الفرد عن ذاته تعبيرا تلقائيا. وأن الإنتاج الفني للفرد لابد وأن يعكس خصائص شخصيته وان ما يميز الفنان عن سواه من الفنانين هو جانب الفردية والذاتية في إنتاجه، والرد على هذا الاعتراض يتلخص في أن الإنتاج الفني يحمل طابع الفردية لاشك. ولكن هذا ليس من شأنه أن يوجد فارقا بين الإنتاج الفني والإنتاج الأدبي أو غيرهما من أنواع الإنتاج بمعنى أننا نجد في كل إنتاج جانبا من الفردية أو الذاتية المستقلة ولكننا نجد أيضا في كل إنتاج جانبا من التقيد ببعض المبادئ الأساسية أو الأصول المتفق عليها، أو القواعد التي لابد من التزامها عند التعبير عن الذات أو الكشف عن الفردية المستقلة. مثال ذلك أن الأديب يكشف عن نفسه ويبين عن ذاته ملزم باتباع عدد من القواعد اللغوية والأدبية والنحوية التي يشترك فيها مع غيره من أبناء الجماعة إن كان يريد أن يوصل مقصوده و مضامينه اليهم، والفن في هذا شأنه شأن الأدب: فيه جانب الذاتية المستقلة، كما أن فيه خصائص عامة مشتركة على أساس الالتزام بعدد من القواعد العامة والأصول المتعارف عليها.

إن احتواء المنهج الدراسي علي التربية الفنية إنما يعني أن التعبير الفني يمكن أن يكتسبه الطفل من المعلم عن طريق تزويده وتبصيره بالقواعد العامة والتقنيات المصطلح عليها مع إتاحة الفرصة للطالب الناشئ بالتعبير عن ذاته، وتحقيق فرديته فيما ينتج من عملي فني،وإذا كان الأمر علي هذا النحو فقد وجب علي أصحاب مجال الفن وتعليمه أن يحددوا ما يلتزمون به من أصول الفن والقواعد المشتركة ليتمكنوا من استخدام الأساليب اللغوية المناسبة من أجل نقلها إلى الطلاب.

ولعل أول الخطوات التي ينبغي أن تتخذ في هذا الصدد القيام بالدراسة الموضوعية لما يصدر بالفعل عن الناشئة من إنتاج فني تلقائي لنتبين مثلا هل هم ملتزمون بالقواعد وبالأصول الفنية التقنية التي لابد من التزامها عندما يعبر الفرد عن ذات نفسه. ثم نتعرف في إنتاجهم الفني علي تعبيراتهم التلقائية من حيث المضمون والأسلوب، ولو أننا أحسنا القيام بهذا الأمكننا أن نزود الناشئة بما يجهلون من القواعد والأصول تبعا لمستويات نضجهم، ولتيسر لنا أن ندرس ما يكون لديهم مبدئيا من ذخيرة فنية. ومن خصائص عامة.

ولكن أمثال هذه الدراسة لا قبل للفنان وحده، ولا للمشتغل بالدراسة النفسية وحده أن يقوم بها، بهذا كان لابد من أن تقوم هذه الدراسات علي أساس من التعاون بين أصحاب الميادين العلمية المختلفة بحيث يكون هذا المشروع العلمي بمثابة مشروع متعدد المراحل " An interdisciplinary endeavour"

لقد بدأت خطوات على هذا الطريق منذ دخول الدراسات العليا إلي كليات جامعة حلوان ١٩٦٩، لكنها في مجال التعبير الفني للأطفال محدودة، وإذا تم تصنيفها نجد أن أغلبها إهتم بالتعبير المسطح (الرسوم) دون التعبير المجسم .